

كيف نقرأ كتاباً من الصفحة الأخيرة؟

عبد السلام بنعبد العالي يكتب «النص المتعدد» ويمجد الاختلاف



لوحة للفنانة فاطمة حسن

«الخرين» لدى أمبرو إيكو، وعليه، فإن كل قراءة هي تاريخ من القراءات، ولذلك فهي متعددة قبل تعدد النص ذاته. والأمير نفسه بالنسبة إلى الكتابة، فما هي إلا إعادة لتاريخ من الكتابات، ولما لا يفتأ يكتب. ليس يتوقف الأمر هنا وحسب، بل إن القراءة هي دوماً «إعادة قراءة» اصطلاح بارت دائما، وعملية إعادة عملية ترجمة هذه هي الوحدة القادرة على إنقاذ النص من التكرار. وبهذا، تصبح كل قراءة بمثابة إعادة إنتاج للنص، أي كتابة ثانية، يقول بنعبد العالي. وجب الانتباه هنا إلى المشترك الصوتي بين عبارتي «تعدد» و«إعادة»، فالتعدد يعيد نفسه في صيغ شتى، بل إن النص «كلما كان متعددًا تكون كتابته لاحقة لقراءته»، يضيف بنعبد العالي.

هكذا، يصبح القارئ منتجاً للنص، أو مساهماً في إنتاجه، وليس «مجرد مستهلك للنص»، حسب بارت دائما. ما يتكشف عن نقد متقدم من صاحب «لذة النص» للعقلية الاستهلاكية، حتى على مستوى تداول الأدب، كما رُوّجت لذلك المؤسسة الأدبية، هذه المؤسسة التي كرسّت مفهوم الكتاب المغلق على ذاته، الكتاب المحصور بين دفتين، والذي يقرأ من البداية إلى النهاية، عبر تسلسل كتابا مفتوحا ونصا متعددًا أمام قارئ متعدّد. ذلك هو النص الذي يكتبه مفكرو الاختلاف، من هايدغر إلى ريداء، ومن بارت إلى بلانشو، ومن الخطيبي إلى عبد السلام بنعبد العالي.

مزدوجتين. لكن مجرد استحضارها وترتيبها هو فعل كتابة بمعنى ما، إلى جانب تصديرها بعبارة ريداء «إننا نكتب لا بلغتنا، ولا بلغة أجنبية». ليست الترجمة كتابية، والاختيارات كتابية أيضا. من هذه الشذرات الخطيبية ما ورد في هذا الكتاب من أن «اللغة الأم تعمل عملها في اللغة الأجنبية، حيث تتم بين اللغتين عملية ترجمة دائمة، ويدور بينهما حوار خفي يتعدّد وتشكّف وتبنيانه». ومن ذلك قوله، أي الخطيبي «عندما أكتب، أقوم بذلك في لغة الأخر. هذه اللغة ليست ملكا لأحد».

النص المتعدد

نصل في النهاية إلى الفصل الأول، أو المقال الأول، والذي يحمل عنوان هذا الكتاب «النص المتعدد». ليس المقصود هنا الحديث عن تعدد التأويلات وتباين القراءات بصدد النص الواحد، بسبب اشتراك الألفاظ وتعدد دلالاته. أبعد من ذلك، يرى بنعبد العالي، استنادا إلى تصور رولان بارت للموضوع، أن «تعدد النص يبدأ أولا وقبل كل شيء انطلاقا من قارئه، أو، على الأصح، من التعدد الذي يسكن قارئه». ذلك أن هذه «الأنا»، التي تسمى قارئاً، هي قبل ذلك «نسيج من النصوص والشفرات التي لا تعدّ ولا تحصى». كل قارئ بهذا المعنى يقترب من النص وهو يحمل معه ذخيرة من النصوص، تحضر وتؤثر أثناء قراءة كل نص جديد. كل قارئ يحمل «خزانة نصوص» بعبارة بنعبد العالي، والتي تذكرنا بمفهوم

المزدوج، بما هو خلخلة وتقويض للهوية ومقاومة التطابق، بحثا عن هوية متعددة، باستمرار، أو لنقل إنها هوية لا تني تتعدد. هذا التعدد لدى الخطيبي يلتصقه بنعبد العالي في الفصل السابق، حين يتحدث عن الكتابة والترجمة، وكيف كان الخطيبي مفكرا متعددًا، على مستوى اللسان، حين كان يتكلم بلغة ويكتب بأخرى. وهي ازديادية لغوية خلاقية، يقول الكاتب، وهو يشير هنا إلى ترجمة من نوع آخر لدى الخطيبي، تتم في الوقت الذي يمارس فيه فعل الكتابة، وهو ينقل من اللغة الأم إلى لغة الكتابة، وهنا، لا تأتي الترجمة بعد فعل الكتابة، وعقب الانتهاء منها، بل هي ترجمة تتخلل الكتابة وتعيش مخاضها... إنها

ترجمة في خضم الكتابة. قبل ذلك كله، هناك مقالة في هذا الكتاب حرّرها بنعبد العالي في الذكرى العاشرة لرحيل الخطيبي (رحل المفكر المغربي يوم 16 من مارس 2009). والمقالة عبارة عن استعادة لشذرات الخطيبي حول الأزواجية اللغوية. باستثناء العنوان لم يتحدث بنعبد العالي ولم يكتب أي سطر من هذا المقال، فقط ترجم الشذرات، ووضع كل واحدة بين

كثيرين، اعتبر عبد الكبير الخطيبي أحد أكبر كتاب عصرنا وشعرائه ومفكره الناطقين باللغة الفرنسية، وأسف لأنه لم يبل الدراسة التي يستحقها في البلدان الناطقة باللغة الإنجليزية. يهمني أن أشير إلى أن أعماله، المعترف بقيمتها بشكل واسع في العالمين العربي والفرنكفوني، هي ابتكار ذاته، تأمل نظري متين يرتبط، من بين موضوعات كثيرة، بإشكالية ازديادية اللغة وازدواجية الثقافة». وهو الموضوع الذي سيتناوله بنعبد العالي في مقال آخر من هذا الكتاب، سنصل إليه كلما انتقلنا من المقال الأخير إلى ما قبله. يستحضر بنعبد العالي الفكر الخطيبي بوصفه من أقطاب فكر الاختلاف.

وقد انتصر لهذا الاختلاف في مقابل الهوية والتطابق، ملظما انتصر للتعدد بدل الوحدة، وللتقطيع والانفصال بدل الكلية والاتصال، وعموما، لنقل - مع بنعبد العالي- إن الخطيبي انتصر لتفكيك المفاهيم بدل بنائها... وبهذا، يكون صاحب «المغرب المتعدد» و«النقد المزوج» قد دعا إلى فكر مغاير، «يصبح علامة على ضرورة في عالم يجب أن يتحول، وهي مهمة لا نهاية لها». هو الخطيبي الذي يدعونا إلى النقد

من يقرأ الأعمال الكاملة لعبد السلام بنعبد العالي يدرك أن كتب هذا المفكر المغربي يمكن أن تقرأ بهذه الطريقة. ولذلك، فهي ليست أعمالا كاملة، كيف وقد أصدر المؤلف بعدها كتابا أخرى، في السنوات الخمس الأخيرة. والحال أن هذا المفكر لا يقول أبدا بالاكتمال، مثلما لا يؤمن بالانسجام والاتصال وإنما يقول بالانفصال، ويفكر الاختلاف. كاتب يرفض «النص» المكمّل والحقيقي، النص الواحد و«المتوحد» المكتفي بذاته، متجها نحو «النص المتعدد»، كما هو عنوان هذا الكتاب.

والمفاتيح التي قد تقود إلى فتح مقالاته على القراءات والتأويلات الممكنة والراجعة واللامتوقعة أيضا. نعم إنها «مقالات»، بالمعنى الفكري والفلسفي، وليس لأنها نشرت منفردة في مجلات أو تلت في ملتقيات علمية وفكرية. مقالات بالمعنى الذي تحدث عنه كاسيرير وشيلر وهايدغر وابن رشد ولويس دومون وأبو الحسن الأشعري في «مقالات الإسلاميين»، أي أقوالهم ومواقفهم و«الآراء»... لسنا ننسى أن الكثير من «مقالات» بنعبد العالي نشرت في مجلات عربية في الزوايا الخاصة بالآراء الفكرية.

في هذا المقال الأخير «من الرأي» يرى المؤلف أن الفلسفة الحديثة ما عادت تنتظم في تيارات ومدارس واتجاهات. وينقل لنا جواب دولوز حين سئل ذات حوار عما إذا كان فكره يشكل مدرسة، فأجاب بأنه «بالكاد يعتبر ملتظما في شبكة». معنى ذلك أنه يلتقي مع آخرين في رهان فكري يشغلهم. وهنا يصبح عمل الفكر ليس هو بناء المذاهب ولا رصد التيارات، وإنما تفكيك اليقينيات «بحفا عما هو متفرد». لم يعد هاجس الفلسفة الحديثة بناء الانساق والوحدات والكلية، بل الوقوف عند ما بات يعرف اليوم بـ«فكر الاختلاف».

وهذا الفكر لا هو فلسفة ولا هو مذهب أو تيار فلسفي. فكر عصي على التصنيف، يتعدّد ضمه تحت اسم معين، كما يقول الكاتب. وهو ما ينطبق على فكر هايدغر وريدا ودولوز، مثلا، باعتبارهم مختلفين عن التقليد الفلسفي، عبر تاريخ الفلسفة برمته. مثلما هم مختلفون عن بعضهم بعضا. بل إن نصوص الواحد منهم وافتكاره تختلف عن بعضها، وهذا هو منطق اشتغالها، إن صح أن أفكارهم تستغل وفق منطق. بل إن عمل هؤلاء إنما يقوم على التقويض، أو ما يسميه بعضهم «تفكيكا» (ريدا)، أو «خروجا»، بينما تبقى كلمة التجاوز الأكثر استعمالا في هذا الصدد؛ تجاوز الميتافيزيقا، والمقصود بها عديم تاريخ الكائن أو بنية الوجود. بل لنقل تجاوز الفلسفة نفسها، إلى درجة الإعلان عن موتها، لدى البعض.

درس الخطيبي

كيف تمكن قراءة كتاب من الصفحة الأخيرة؟ وحدها كتب عبد السلام بنعبد العالي تسمح لنا بذلك. فالفصل الأخير من الكتاب سرعان ما يصبح مقدمة لإعادة قراءته من جديد، ما دام الكتاب يتعدد بتعدد قراءاته أيضا. إنه كتاب كلما وصلنا إلى نهايته كلما استأنفنا قراءته من جديد.

فلنواصل القراءة إذن. وبعد قراءة المقال الأخير، لننتقل إلى المقال ما قبل الأخير من الكتاب. وقد خصصه المؤلف للمفكر المغربي عبد الكبير الخطيبي، صديق رولان بارت وذاك ريداء، هذا الأخير الذي يقول عن الخطيبي «مثل



مخلص الصغير
كاتب مغربي

يستهل المفكر المغربي عبد السلام بنعبد العالي كتابه الجديد «النص المتعدد» بالحديث عن كتبه، والتي غالبا ما يؤخذ عليها أنها «تفتقد وحدة الموضوع»، انطلاقا من أن ما يثير الانتباه في ما يكتبه الرجل هو «تعدد الموضوعات المطروقة، إن لم نقل تشبّتها».

يسري هذا الأمر بطبيعة الحال على كتابه الجديد هذا، الذي صدر مطلع سنة 2020، معلنا صراحة عن تعدده واختلاف مواضيعه منذ عنوانه «النص المتعدد». إذ غالبا ما تحمل كتب الرجل عنوان الفصل الأول منها، إن صح أن نسميها فصولا، بل هي مقالات مستقلة، حيث نجد النصوص الأخرى وقد أبحرت في اشتغالات آخر، وطرقت موضوعات مغايرة.



عبد السلام بنعبد العالي

لا تأتي الترجمة بعد فعل الكتابة، وعقب الانتهاء منها، بل هي ترجمة تتخلل الكتابة وتعيش مخاضها... إنها ترجمة في خضم الكتابة

لكن، ماذا لو بدأنا قراءة هذا الكتاب من النص الأخير؟ أكيد أننا سوف نصل في النهاية إلى النص الأول «النص المتعدد»، مثلما هي مقالات الكتاب نصوص متعددة تسائل بعضها وتتجاوز وقد تتجاوز، لكنها لا تنقاد لبعضها ولا لتتزم بأن تكون جزءا من بنية واحدة، قائمة على مبادئ الانسجام والاتساق والاتصال، بينما ينتصر المؤلف لفكر الانفصال والاختلاف كما أسلفنا.

النص الأخير

حمل النص الأخير من هذا الكتاب عنوان «المسارات الحديثة في الدراسات الفلسفية»، ولعله النص الذي يسعفنا في فهم المقولات التي يوظفها المؤلف

سبل تجاوز الأزمة الإيكولوجية

«الوفرة والحرية» للمفكر بيير شربونني، بحث فلسفي وتاريخي يقترح التاريخ البيئي للأفكار السياسية المعاصرة، ولا يطمح عن أصل الفكر الإيكولوجي، وإنما يبين كيف أن تلك الأفكار تولدت عن تصور معين لعلاقة الأرض بالبيئة، سواء تبنت المعنى الأمل للإيكولوجيا أم لا. بيد أن أهمّ الفئات السياسية للحداثة قامت على فكرة تحسين الطبيعة، والتغلب النهائي على شخها وتحديد استغلال مواردها الجوفي، فبدأ أن المجتمع السياسي للأفراد الأحرار والمتساويين المزدهرين يرى نفسجلا من أفعال العالم خاصة مع تطور الصناعة المعروفة بالتقدم. إلا أن هذا الميثاق بين الديمقراطية والتنمية يعاد النظر فيه اليوم على ضوء التغير المناخي وانحرام التوازنات الإيكولوجية، ما يستوجب إعطاء أفق جديد لتفتح سياسي ما عاد يستطيع الاستناد إلى وعود توسع لانهائي للرأسمالية الصناعية. ويوصي المؤلف بان نهدي بأشترافية القرن التاسع عشر حين واجهت الأزمة الجغرافية الإيكولوجية الناجمة عن التصنيع، مع حماية المجتمع حمايتراعي تضامن المجموعات الاجتماعية مع بيئاتها في عالم متحول بفعل التغير المناخي.

رف الكتب

فوبيا التأخر

من أمراض هذا العصر أن الأفراد يعانون من فوبيا التأخر. فالخوف من الوصول بعد الموعد المحدد، سواء في العمل، أو في تربية الأطفال، وحتى لقضاء العطل، يجعل الناس يستبقون كل شيء حتى يستبد بهم شعور أنهم لا يعيشون لحظتهم، وأن الإحساس بالحياة يهجرهم، أي أنهم يفقدون الإحساس بالزمن، ومعه الإحساس بالوجود. ولكن هيلين لويي أستاذة الفلسفة والتحليل النفسي بجامعة السوربون، تبين في كتابها «مدبح التأخر» أن استرجاع كل ذلك ممكن. فالوصول متأخرا معناه التعيب عن المدرسة، اتباع الطرق الفرعية، عدم التوجه إلى الهدف مباشرة، إدخال تعديلات طفيفة قد تؤدي إلى انحراف التروس المزينة بعناية وحيواتنا الآلية حد الشطط. وذلك كله يعني أن الفرد يعيش حياته بحق. وفي رأيها أن أمام القيم المهنية لمجتمعاتنا الحديثة كالمرونة والسيولة والعجلة والسرية، والبافولوجيا التي تنتج عنها، يصبح التأخر حين من الوقت يسمح للفرد بتدارك وضعيته الزمنية، وبذلك يغدو استراتيجيا مقاومة.

البطء كوسيلة لكسر النسق

تاريخ الحداثة هو بالأساس تاريخ تمييز، إذ جعل السرعة مثلا للفضيلة الاجتماعية، ودفن المجتمعات الحديثة إلى ابتكار رذيلة هي البطء، أي عدم القدرة على مجاراة النسق العيش على إيقاع العصر. انطلاقا من عنف رمزي ومخيال مجهول، يستعرض الباحث لوران فيدال سفر تكوين البشر الطبيعيين، أولئك الذين استخنتهم أيديولوجيا التطور، بدءا من هندي كسول ومستعمر حامل زمن الاكتشافات الكبرى إلى العملة غير المنضبطين في القرن التاسع عشر أو العمال الذين يوضعون على هامش الجدوى. والكاتب يكشف لنا كيف تبني أولئك الأفراد البطء لتخريب الحداثة، في اتجاه معاكس للنسق الذي فرضته الساعات والمواعيد، إما بالكسل أو بالمخادعة لخلق إيقاعات جديدة تتبدى حتى في بعض ألوان الموسيقى كالجاز والسامبا، وفي استراتيجيات التخريب التي يتبعها العمل النقابي الثوري، وبذلك يقدمون أنماط عمل جديدة، ونظرة أخرى عن التفتح.

